القول الفصل في أصل اليزيدية

(تمهيد)

القس ماروثا حكيم كاهن كلداني ولد في ديار بكر سنة ١٨٨٧ ولما بلغ الثانية عشرة من عمره ذهب الى الموصل ودخل المدرسة الاكليركية التي فيها للآباء الدومنيكيين فدرس العربية والكلدانية والفرنسية واللاتينية وكان يعرف التركية والارمنية فكهن سنة ١٩١٢ واظهر من نحو الادراك وتحقيق امور التاريخ ما دفع رؤساءهُ الى ان يروا فيهِ رجلاً فذًّا في اعادة تاريخ الكلدان الى نصابهِ . وكان ايضاً يدرس اليونانية ليطالع كتب الاقدمين الذين الفوا التصانيف المختلفة من بلاد العراق وما يجاورها

وفي ايام العطلة كان يتجول في ادبرة الجزيرة وقراها ليلتقط ما يجد فيها من بقايا الكتب الخطية التي صبرت على عبث الزمان بها فوجد منها شيئاً غير زهيد ومن جملة ما توفق للعثور عليهِ كتاب ضخم في تاريخ ديار العراق والجزيرة لكتبة ارمنيَّة ومن جملة ما وجدهُ فيهِ تاريخ نشوء اليزيدية

فاستأذن صاحبهُ بان يهديهُ الكتاب فلم يشأ ثم تذلَّل بين يديهِ ونفحهُ بمبلغ من الدراهم ليبيح لهُ ان ينزع الوريقات التي تبحث في اليزيدية فاذن لهُ . وكان في نية مشتريهِ ان يذهب الى ديار الكلترة وينخرط في سلك رهبانية البندكتيين الاَّ ان الموت داهمهُ في الاهواز نهار السبت ٢ أيلول من سنة ١٩٣١ فانتقل الكتاب الى ايدي اناس لا يعرفون قدرهُ ولا نعلم ما جرى بهِ

الا ان القس المذكور لما كان في بغداد دفع ترجمة المقال المتعلق بنشوء اليزيدية اليَّ وهاءنذا ابعث بهِ الى مجلتكم الزاهرة ليقف عليهِ العلماء من مشارقة ومغاربة فيعرفوا القول الفصل في هذا الموضوع المهمّ وهذا عنوان الفصل على ما جاء في المصنف نفسهِ

خبر اخذ الشيخ عدي بن مسافر بن احمد لدير ماربوحنان وماراشوع صبراي

« طلبتَ اليَّ مراراً عديدة يا اخي العزيز والشريف ربان يوسف الراهب الشهير في ديرمار ميكائيل في ترعل والتمست ان ادوّن لك حكاية السبب الذي حدا

بالشيخ عدي بن مسافر بن احمد الى اخذ دير مار يوحنان ومار ايشوع ميران الشهير الموقر

فاعلمك يا عزيزي وصديقي يوسف انا الشيخ راميشوع بان في سنة ١٥٠٥ لليونان (= ١١٩٤ للمسيح و٥٩٠ للهجرة) اكان يسكن الدير المذكور رهبان عديدون كهنة وغير كهنة وكان العُمّر (اي الدير) واقعاً في جبل اعلى من قرية عين سيفنة (١) وفي مشرق الشمس كان نهر جومال على بعد ثلاث ساعات من قرية حنس

وكان لهذا الدير نحو ثلاثين قرية ونحو ١٥٠٠ شاة كانت تؤخذ كل سنة الى جبل زوزان (٢) ما عدا المائتي عنزة التي كانت تبقى في الدير لامور جماعة الرهبان وكان لهُ ايضاً عدد وافر من الجمال والبقر فانتشر اسم الدير الى ابعد الديار. وكان الرهبان قد عهدوا الى اهل عدي رعاية هذه الاغنام فانتهز تلك الفرصة ليقبض على الدير وما فيهِ ففعل

وفي السنة التي بلغ فيها عدي الرابعة من عمره تركهُ والداهُ في الدير وذهبا برعيان القطعان في جبل زوزان فنشأ في العُمّر وتعلم اللغتين العربية والارمية (الكلدانية السريانية) كما كان يتعلمها الرهبان

ولما راهق وترعرع تزوج بأُبَّهة عظيمة ابنة قتربة شريفة شهيرة فلما ارتفع شأنهُ عند رئيس الدير عهد اليهِ هذا الرئيس ادارة الدير كلهِ كامر كراء المطاحن وجمع حنطة القرى وقطف الزيتون. فازداد على هذا الوجه امر عدي وانتشر اسمهُ بين رؤساء البلاد وشيوخها واكتسب لهُ جودهُ وكرمهُ قدراً وجاهاً وحسن سمعة واجلهُ الناس جميعهم

وكان اسم عدي مسافر من بني أُمية وكان قومهُ يصعدون دائماً الى جبل زوزان وينزلون منهُ شتاء ليقيموا في سهل الموصل. وكان في ذلك العهد قبيلة

(١) عين سفنة او عين شفنى والمشهور في عهدنا هذا بالسين المهملة والفاء في الآخر قرية تبعد عن الموصل شمالا نحو ٥٥ كيلو متراً وعلى ٨ كيلو مترات من غربي بلويان. وقد جاء ذكرها في كتب الارمنيين في القرن السادس للمسيح اذ كان فيها معاران اسمه برسهدا

(٢) زوزان والزوزان بال التعريف وبدونها ناحية واسعة في شرقي دجلة من جزيرة ابن عمرو اول حدوده من نحو يومين من الموصل الى اول حدود خلاط وينتهي حدها الى آذربيجان الى اول عمل سلماس وفيها قلاع كثيرة حصينة وكلها للاكراد (ابن الاثير)

(زدنايا) وهي من اقارب بني اومية . وكانت هذه القبيلة تسكن جبل زوزان رحمتْ الى اهل عدي بتلك القرابة فكان اهل عدي يجدون في تلك القبيلة احسن مُعين لهم عند صعودهم الجبل وانحدارهم منهُ ولذا كانوا يكرمون بني اومية ويضيفونهم احسن ضيافة كلما اقتضى الامر اي حين يزورونهم في شهر تشرين الثاني فكانوا يخرجون من ذلك البيت وايديهم مملوءة هدايا والطافاً . وكانت قبيلة زدنايا عبارة عن ٦٥٠ بيتاً وكان المنتمون الى عدي اكراد تراهايا مسلمين وعددهم يتجاوز الالف بيتاً (عائلة)

وكانت العادة في عصرنا ان رؤساء الدير يذهبون كل سنة لحج المقدس (اورشليم) ومعهم جماعة من الرهبان وكانت تبقى حينئذٍ ادارة شؤون الدير الدنيوية بيد عدي بدون منازع

فلما توفي والدا عدي وقع ارتباك في امور الدير وذلك ان ابناء عدي وهم : شرف الدين محمد وفخر الدين وشمس الدين تزوجوا نساء تتريات مغوليات واخذوا يعيثون فساداً في تلك الديار ويأتون انواع المنكرات والموبقات ولم يكن عدي يردعهم البتة ولم يزجرهم . فاضطر عندئذٍ الرئيس ان ينزع من يد عدي ادارة القرى والمطاحن ولم يبق لهُ سوى رعاية الغنم فاضطربت شؤون الدير بما كان يدسهُ عدي واولادهُ من الدسائس

واول ما فعلهُ عدي انهُ اختطف يوماً بغلاً من بغال الدير ثم اوقع بالدير اضراراً متنوعة ثم جاء بثالثة الاثافي انهُ كشف القناع عن امانيهِ فما كان احد يستطيع ان يجسر ليردعهُ او يصدّهُ لفتن ذلك الزمن والمعارك التي كانت تقع فيهِ والناس قائم بعضهم على بعض بين مسلمين ونصارى وذلك في فلسطين وساحل بحر الروم بما يتعلق بمسألة القدس الشريف

فلما رأى رئيس الدير ما كان يعملهُ عدي صمّم على ان يهددهُ ويخبر بامرهِ حاكم المدينة (اي الموصل) وفي سبت الاسبوع الثاني من الصوم الكبير انطلق الرئيس الى اورشليم مع طائفة من رهبانهِ جرياً على سنن الاقدمين ممن سبقهُ

وبدأ عدي يعبث باموال الدير على مسمع ومرأى من الرهبان الذين كانوا يدفعون اليهِ كل ما كان يشاء خوفاً منهُ ومن طوارىء الزمن ولم يجرؤ احد على مخالفتهِ

ومما اتفق يومئذٍ ان اربعين ذاعراً او قاطع طريق قدموا من اورشليم اليهِ

وقالوا لهُ : « نحن في خدمتك . » وقصوا لهُ جميع الحوادث التي وقعت في فلسطين وسورية . فلما وقف عدي على تلك الانباء صمَّم على طرد الرهبان من الدير ولو لم يأتهِ في ذلك اليوم عينهِ رسول كردي من قبيلة ترهايا التي تسكن الجبال الواقعة على ساحل الزاب الاعظم لحقق ما كان قد نواهُ

وبعد ان ذهب الرسول نهض ودخل الدير وطلب أطعمة زاعماً انها للرئيس الذي بعث الرسول . فاضطر الرهبان الى ان يسلموا اليهِ ستة حمول من الاطعمة مع دوابَّ تحملها ونحو الف كردي من تبعة عدي رافقوا هذا الرجل في سفرتهِ . فذهب كل هؤلاء الناس الى شيخ قبيلة ترهايا ثم عاد بعد ذلك فاستباح دماء الخلق وعاث في البلاد ولا عيث الذئاب ولما عاد الى الدير عاد بما نهب وسلب

وبعد فعل ما فعل هجم الجميع على الدير وقتلوا جميع الرهبان ولم يستحيوا الاَّ مريضاً كان على فراش الموت منذ الربيع . فاقام عدي وجميع من في بيتهِ وذهبوا الى انقلاني فسكنوها وذلك بعد المذبحة العظيمة بثلاثة اسابيع وعلكوا على كل ما يعود الى الدير . ومنذ ذاك العهد اصبح العمر مقراً عاماً للعشيرة الكردية كلها

وبعد ان مضى ردح من الزمن على هذا الحادث عاد رئيس الدير من القدس في نحو شهر ايار فادخل في منزل عدي فسأله هذا : من انت ولاي شيء اتيت ؟

فقال لهُ الرئيس : اني رئيس الدير الذي تقيم فيهِ الآن وقد هجم علينا الذعار في الطريق ثلاث مرات ونهبونا وجعلونا في الحالة التي تراني فيها فالدير دبري وهو لي فكيف ساغ لك ان تأخذهُ وتذبح رهبانهُ فاريد الآن ان تتخلى عنهُ بدون تأخر

فقال لهُ عدي : اني اخذت هذا الدير بقوة سيفي فعليك عليك ان تخرج للحال من هذا الموطن وتفعل ما يعنّ لك قبل ان آمر بذبحك

فغادر الرئيس ديرهُ وذهب الى بلاد فارس حيث كان قائد الجيوش المغولية فقابلهُ بثيابهِ الرثة وعلى رأسهِ الرماد وبدأ يبكي بكاء ما بعدهُ بكاء ويرثي للحالة التي صار اليها ديرهُ

وكان اسم القائد (آغانول) فلما وقف هذا على الامر تحنن على الرئيس الشيخ واوصى بهِ خدمهُ وان يحافظوا عليهِ ريثما يذهب جيشهُ الى ديار إربل واعطى الرئيس ورفاقهُ أطعمة وألبسة ونفقات لمدة ستة اشهر فبقي رئيسنا مدة سنة في بلاد خراسان الى سفر الجيوش المغولية الى انحاء اربل لان في ذلك الحين كان

التتر والمغول يحاربون في خراسان اي في سنة ٦١٩ للهجرة (١٢٢٢ للمسيح) وبعبارة اخرى بعد اخذ الدير المشهور باسم ماربوحنان ومار ايشوع صبران في عهد الخليفة الظاهر (بامر الله العباسي) والمستنصر (بالله)

وبعد ان وضعت الحروب اوزارها من تلك الربوع امر اميرٌ هو ابن اخي جنكيزخان بان يحضر عدياً الكردي . فسار الامير المذكور ومعهُ الف فارس مغولي فلما بلغوا شهرزور عسكروا فيها وانفذ الامير فارساً ليحضر عدياً الكردي فذهب للحال عدي راكباً جواداً ليواجه الامير (تومان) نفرساجداً لهُ واجلهُ. فسألهُ الامير عن السبب الذي من اجلهِ قتل الرهبان الساكنين فاجابهُ : يا سيدي اني لم اقتل احداً من اهل الدير انما القاتلون اكراد ترهايا هجموا على البلاد كلها وبعد ان اتوا انواع المنكرات عادوا الى ربوعهم اما انا فلما كنت اخافهم اضطررت الى ان اسكت وبعد ذلك نقلت اتباعي الى الدير لكي انقذهُ من الخراب ونحن في حفظهِ الى يومنا هذا

فامر الامير للحال ان يؤخذ الى فارس الى مدينة مراغة وان يمثل بين يدي الخان الاكبر فاخذ الى هناك وحوكم وقضي عليهِ بان يقتل بدون رحمة ولا شفقة

اما ابناء عدي فان اثنين منهم صارا في خدمة امير المغول وتبعاهُ مع خمسمائة فارس الى نصيبين في نحو الخريف . فدمر محمد شرف الدين والامير تومان جميع ديار نصيبين ونهباها وسلبا ما كان مع اهاليها ثم عادا مع فرساتهما الى الدير وخيموا فيهِ . وكان محمد شرف الدين وفخر الدين وشمس الدين ابناء عدي الكردي يجهلون موت والدهم فاهدوا هدايا جليلة الى الامير والى حشمهِ ليحملوهُ على ان يتحزب لدعوى والدهم على من ناوأهُ . وبعد بضعة اشهر عاد الفرسان مع اميرهم الى الخان الاكبر واخبروهُ بان ابناء عدي الكردي هم من قطاع الطرق ومن محبي الحرب والقتال وانهم اصحاب جراءة وجسارة كأنهم الابالسة وهم على راس ١٥٠٠ فارس ثم تظاهر الخان وقوادهُ كأنهم واجمون مطرقون مدة من الزمن ! ثم اصدر الخان الاكبر امراً الى احد الامراء واسمهُ سوكاي ان يدبر امر الدير

وبقي رئيس الدير والرهبان الذين كانوا معهُ في مراغة ولم يرغبوا في مرافقة سوكاي خان حينما سافر الى انحاء الموصل وامر الخان الاكبر ان يبقى الرهبان في فارس الى ان يُقبَض على ابناء عدي ويقتلوهم وحينئذٍ يستطيعون ان

يعودوا الى ديرهم ويتمسكوا عليهِ. وقد فاه بهذا الكلام لما رأى من الاضطرابات والفتن في الشرق والمعارك التي كانت تجري في فلسطين. فثمن سوكاني وباغوندين ومعهما جيش جرار وكلهم من القفجاق المغول فاتجه باغوندين الى انحاء ارزن الروم (ارضروم) مع تجريدة مهمة وكان بيدهِ مرخاص بان يمحو بني اسمعيل (العرب)

ما سمع بهذا الامر عزالدين صاحب يقونية (قونية) الا وارتعدت فرائصهُ فجمع جيشاً من المعديين والكرد والتركمان بامرة شرف الدين بن عدي الكردي وعين لهُ الدفاع عن حصن زائد (بين ماردين والجزيرة) فبقي شرف الدين هناك الى مجيء التتر فقتلوا عدداً عديداً من عسكرهِ فانهزم شرف الدين من حرزهِ المنيع وفرَّ هارباً ووجهتهُ الجزيرة فتأثرهُ باغوندين (ويقال فيهِ آغوندين) مع جندهِ وادركهُ فقتلهُ في موضع اسمهُ قاح

اما عز الدين فانهُ قبل ان يلحق الامير باغوندين تلقى هذا الامير امراً من القان الاكبر بان يذهب الى بغداد فسار جيشهُ الى الموصل وكان في زمن الخريف ولم يضر البلاد بشيء لان الملك الصالح ابن بدر الدين كان صاحب الموصل وكان قد ادى خدماً للقان الاكبر فزوَّجهُ هذا ترخان خاتون بنت خوارزم شاه وهذه لم تغير شيئاً من اخلاقها المغولية

لما علم شمس الدين بن عدي قتل التتر لاخيهِ محمد شرف الدين انهزم ليلاً مع امرأتهِ في تلك السنة نفسها ومعهُ اصحابهُ هارباً الى سورية وهناك مات

وفخر الدين فرَّ مع ٤٠٠ نفس الى شنغار

وقست هذه الامور بعد مذبحة اهل الدَّير بتسع وثلاثين سنة. ولم تتحسن حالة الدير للفتن التي كانت مستعرة نارها في هذه الربوع ولسوء عزائم أصحاب الامور في ذلك العهد. وفي الآخر توفي رئيس الدير في احد اديرة فارس وكذلك قُتل من الرهبان الذين كانوا معهُ

وبقي دونا خرباً الى عهد احمد (تكودر بن جنكيزخان) الذي اسلم فنودي بهِ سلطاناً على التتر. وفي ذلك العهد تقدم ابناء محمد شرف الدين وفخر الدين وشمس الدين ومعهم نساؤهم ومثلوا بين يدي السلطان احمد وتذللوا امامهُ وطلبوا اليهِ ان يضمن لهم اعادة الدير اليهم فالحَّ امراء الترك والكرد على سلطان التتر احمد ان يحقق امنيتهم ففعل للحال. ومنذ ذاك الوقت اصبح الدير في ايديهم ولم يستطع

احد بعد هذا ان يأخذهُ منهم

فهذه يا اخي العزيز يوسف قصة هذا الدير الشريف دير مار يوحنان وايشوع صبران فلقد رويتها لك على حدّ ما جرت

اما عديّ فقد اطلق عليهِ لقب « الشيخ » منذ ان جمع عصابة الدمار وتقلد امرهم . ومن الناس من يقول ان عدياً هو من اولاد اميّة ومنهم من يذهب الى انهُ من ابناء يزيد

وقد طلب اليّ ايضاً ان اذكر لك شيئاً عن مذهبهِ فاقول : لم يكن مذهبهُ في بادىء الامر شيئاً مذكوراً فانهُ كان مسلماً بالاسم وكان يأخذ بدين الترهايا التي يرتقي اصلها الى يزيد . وذلك ان هؤلاء القوم كانوا يجلّون يزيد ويتخذونهُ نبياً وينقادون لوصاياهُ انقياد الاعمى لقائدهِ . وكان اشياع عدي يصدقون كل ماكان يقولهُ لهم شيخهم عديّ حتى انهم كانوا يؤمنون بماكان يدعيهِ بان اصلهُ من الآلهة وكان عدي في حياتهِ يمنع اصحابهُ من تعلم العلوم اللهم الاّ اهل بيتهِ . واقام لهم رؤساء فمنهم من كانوا للدين ومنهم من كانوا يتولون قبض الاعشار ومنهم لخدمة اهل بيتهِ

فهذه هي حكاية الشيخ عدي يا اخي المكرم الراهب يوسف فادع لاخيك راميشوع الشاب الموجود في دير (آحي) فانهُ يكتب لك قصة الدير الشريف المجيد دير مار يوحنان وصبران ايشوع وذلك في سنة ١٧٦٣ لليونان (= ١٤٥٢ للميلاد أو ٨٥٦ للهجرة)

كتبت هذه الرواية في دير بيت آحي
انتهت

قال الناشر : ان الشيخ عديّاً قتل سنة ٨٥٥ وهذه كتبت كما ترى سنة ٨٥٦ للهجرة . فتكون كتابتها بعد سنة من وفاة الشيخ المذكور فهي أنفس كنز جاء في هذا الموضوع اذ هي اقدم كتابة وصلتنا ولاسيما لان التفاصيل المذكورة تكشف لنا حقائق تاريخية كانت محجوبة عن الانظار كما انها تؤيد آراء بعض المحققين الذين توصلوا الى هذه الغاية عينها باستنتاجات واستقراءات جمة كما فعل حضرة الاستاذ المحقق والعلامة المدقق سعادة احمد تيمور باشا فنشر تلك المقالة الشهيرة في المقتطف

كلدة